

إرسامات حول اللغة العربية وفعاليتها في الحقل المعاصر

للدكتور المهدي بن عبود

ترثها الاجيال اللاحقة عن الاجيال السابقة ، وبما أن الزمان ليس الا صورة ذهنية لا وجود لها في الواقع ، فان القديم والحديث ليسا سوى مرآة لقيمة الانسان فردا كان أو مجتمعا .

عصر النهضة عبارة عن حالة نوز اجتماعية يرتقى اليها الانسان ، وعصور الانحطاط ما هي الا حالة الانتقال ، كصراع طويل ، أنكى ما فيه هو سوء التفاهم بين الناس .

وهذه النظرة الى التاريخ صادقة على الحياة البشرية جملة وتفصيلا ، اذ أن الوعي يشمل الامة في العادات والمعتقدات والصناعات ، والانحطاط أيضا يظهر جليا فيها على صورة الاحوال والاقوال والافعال والمظاهر ومن بينها اللغة .

ولا أدل على هذا من تقدم اللغة أو تأخرها لانها صورة للعقل والنفوس ، فلما تقدم العرب تقدمت معهم لغتهم حتى صارت منتشرة الاستعمال في العالم الشرقي والغربي خصوصا في ميدان العلوم والتجارة ، ولما تأخروا وقف تطورها لكن من حسن حظها وحظ العرب أنها كانت سابقة لغة حضارة خلفت لنا تراثا لغويا عظيما ، فلما وصل العالم العربي الى درجة التخلف الذي تركهم فيه الاضمحلال كانت الشعوب العربية أحط مستوى من لغتهم المحفوظة في الذخائر العلمية والادبية والفقهية وخصوصا في القرآن الكريم الذي

ليست المسألة لغوية وانما هي مسألة نفسانية تتصل بنظرتنا الى وجودنا وكياننا وعقيدتنا وفلسفتنا في الحياة وايماننا بنفسنا وتحقيقنا للرسالة الملقاة على كاهل البشر الاحرار في موكب الحضارة العام السائر الى تحقيق حكمة الالهة في الوجود ، وهو تغلب الحق بعد اظهاره على الباطل ، وفوز النور على ظلمات الجهل المركب في النفوس المتحرفة ، والتقريب بين المرء ونفسه وبين الفرد والكل ... ولا نلنت قضية اللغة قضية تافهة لا تستحق هذا الوقت ، وهذا المجهود المكرس لها ، انه لمن اليسير أن تغلب أي لغة كانت على الصعوبات اللفظية للحصول على مسميات ، مثل الآلات الميكانيكية والمواد الكيميائية والظواهر الفيزيائية والتعابير النظرية ولكن من الصعب جدا أن ترفع رجلا غافلا أن يهب من غفلته ويربح وقتا ثميننا بضيق سدى ويدافع عموما عن لغة كتب لها أن تكون لغة حضارة ، ولغة رسالة عظيمة ، وثقافة معينة بها يزدهر التراث الانساني ، كما فعل في الماضي في تكوينها التاريخي على أسس الثقافات العظيمة ،

والحضارة العميقة المدلول

والمفاهيم التي لم يولد كائناتنا متعمدا من الوجهة الفنية ، وخصوصا تلك التي جعلت في موهبة الانتقال التي تتواجد الالهام فينا هيضبة الحفنة تتوالى المشاكلة عند فلا أشد على الامم التي لا يجهل حق اطلولها لانتقاله . لا خلا يقتضض القديم على المجد بلعله الاله يعينه في الالام او طيحيلا ، ووعظيك

لجهله به وخطأ من يصدر حكما في حد ذاته حكما خاطئا سواء كان له علم بالموضوع ، او لم يكن وذلك أيضا من اثر نفوذ الاجنبى على العقول .

وأخيرا ليست هذه أول مرة نرى الاحرار من العرب يشمرون عن سواعدهم ويحاولون جمع شتات الافكار بهذا الصدد ويطرحون على بساط البحث مسألة اللغة بالنسبة لحياة المجتمع كوسيلة من وسائل النهضة العامة مسيطرة الزمان والتطور ، وللمحافظة على شخصية الامة وكيانها وعمقيتها واستمرار رسالتها وتواتر حضارتها واتساع ثقافتها حتى لا تذوب الامة وماثرها في شخصية الغالب وتصبح من الاتباع المغلوبين عليهم اقتصاديا ومعنويا .

ولكن هذه أول مرة تنتصب الامة العربية كرجل واحد تجمع شملها وتوحد جهودها من أقصى الشرق الى أقصى الغرب مومنة بأن قيمة اللغة صورة لقيمة الامة وان حياة اللغة تابعة لوعي الفكر في المجتمع وان موتها نتيجة لموت الامة كشخصية معينة ذات رسالة في الوجود بفضل استقلال العقول منبع حرية الافراد غير ان هذه النهضة العامة التي تبرز أيضا في ميدان اللغة لا زالت تلسوح عليها بعض علامات

التشكك وضعف الثقة بنفسها في بعض الاحيان وفي بعض الدوائر ، لا سيما بعض الحركات السياسية منها بوجه أخص ، ومن جملة تلك الاعراض ، التساؤل عما اذا كانت اللغة العربية ذات فعالية في الحقل العلمى ، وهل هي صالحة لاداء رسالتها فيه والقيام بالوظيفة المنتظرة منها في مختلف العلوم والصناعات ، وما يتجدد من نظريات فيزيائية وكيميائية وطبيعية ونفسية وطبية واجتماعية الى غير ذلك من أنواع المعرفة والتطبيق الداخلة ضمن مدلول كلمة العلوم بالمعنى الحديث ؟؟

فموضوع فعالية اللغة في الحقل العلمى مسألة ذات وجهين : وجه مبدئى ووجه علمى .

I الوجه المبدئى معناه هل اللغة العربية قادرة كلفة متمدنة على أن تكون لغة علوم بالمعنى العصرى ؟ فالجواب بسيط وهو أن السؤال هذا ينبغي أن يوجه للامة لا للغة ، لما كانت اللغة العربية لغة أمة ذات رسالة حضارة استطاعت أن تقوم بوظيفتها في سائر الميادين العلمية والطبية وغيرها مثلما نراه في شخص

جعل منها لغة سمو عقلى وروحى لا يعادله أى انتاج بشرى .

ليست هذه المسألة لافى الميدان العلمى ولا فى غيره مسألة لغة فى واقع الامر وانما هى قضية أم عليها أن تنهض بنفسها ، وتستعمل التراث المدفون بين أيديها وتضيف اليها ما يتطلبه تطور كل لغة عربية كانت أو غير عربية فانه لا يوجد على وجه الارض لغة لا تتطور مع شعوبها على مر الزمان .

ولكن نظرا للعوامل المختلفة التى تؤثر على حياة اللغات فان الاتهامات التى تلحق لغة الضياد هى فى الحقيقة كما سنراه فى غير مجلها وينبغى بالاحرى أن توجه الى الجهلاء من أبنائها .

وليس هذا الموضوع المقترح من طرف المكتب الدائم لؤتمر التعريب بالبحث الهين الواضح الجوانب ، لا ولا هو فى مأمن من الجدل الطويل ، فالخاص العام على خبرة من تداوله على رؤوس الالسنه والخوض فيه فى الجامعات العلمىة والدوائر المدرسية ، والهيئات السياسية ، منذ انبثاق الوعي فى العالم العربى وقيام النضال ضد الاحتلال الاجنبى ، وخصوصا الاحتلال الفكرى .

وليست هذه اول مرة نسمع باللغة العربية تشتكى من خصومها الاجانب الذين لا زال جيشهم الثقافى يوطد الاحتلال المعنوى حسب الاستراتيجية القديمة من عهد بداية الاستعمار والمبنيّة على قتل الشخصية العربية الاسلامية بمحاربة اللغة ومحاربة الكتاب الحافظ لها وهو القرآن ، وذلك لغزو الافكار تسهيلا للاستغلال الاقتصادى واستعباد العقول ، وليست هذه أول مرة نشاهد فيها التنكيل باللغة العربية حتى من طرف أبنائها أنفسهم مبرزين بذلك آمال الاستعمار من جهة ومخاوف الامة على الثقافة الاصلية والحضارة العربية التى بحمد الله استطاعت وحدها ، وبفضل تعاليم الاسلام الثابتة أن تميز بين الاحرار والعبيد والسيد والمسود ، وليست هذه أول مرة نسمع بعض المثقفين بلغة اجنبية شبوا عليها حسب تخطيط الاستعمار وجهلوا بذلك لغتهم جهلا يكاد يكون كاملا يصندون حكما قاسيا وزعما جائرا على عجز لغتهم عن اداء رسالتها العلمىة وحتى غير العلمىة فيقعون فى خطأ مركب مزدوج خطأ من يحكم على الشئ وهو لا يتصوره

أكابر العلماء كالبيروني وابن الهيثم وابن سينا وغيرهم حتى تتلمذ المسالم اذ ذاك عليهم ، ولما انهارت الى المستوى الذي تبع تلك العصور الذهبية انحط كذلك قدر اللغة في نفوس الاعداء والخصوم وأصبح القصور الفكرى وضعف الشخصية الاجتماعية هو مسألة المسائل وصارت اللغة سحينة نطاق ضيق في استعمالها الادبى والفقهى والتاريخى وفى بعض العلوم كالحساب البسيط والنجوم وهلم جرا ، كما عيّدناه فى العصور المتأخرة فى بلادنا .

ففى أيام النهضة والازدهار ترتفع اللغة الى مستوى يوازي رقى الامة وغزارة الفكر والعلوم فيها ، وتكون لسان حال تلك النهضة اذ تبرز كصورة صادقة للدرجة العظيمة التي ارتقت اليها الجماعة فى سلم الحضارة ، فتكون اللغة فى نفس الوقت منبع الافكار ، وترجمان المعرفة ، وسجل الانتاج الثقافى ، وتكون ايضا نتيجة لتلك الافكار ، وتلك الحركة الخصبة السدالة على الحيوية الفكرية للامة وعلى ابتكار القرائح الخلاقة .

وبما أن النهضة يمكن أن تعتبر كائنا حيا ذا وحدة لا تنجزأ فانها عندما تظهر فى عصورها جلية ، فان ذلك يكون فى سائر مرافق الحياة وجزئياتها : تظهر فى الروح الجبارة القادرة على الخلق والابتكار والاستقامة والتضحية والعدل واحترام القانون والشورى وحسن التدبير والنظافة والتعمير ، وازدهار العلوم والصناعات واستقلال النفس ومهابة الدولة والتأثير فى الغير ... الخ ...

واذ ذاك تكون قيمة اللغة وقدرتها او فعاليتها كقيمة الامة ومسيرها سواء بسواء ، فالقول المأثور عن الامام على كرم الله وجهه : «ان المرء مخبوء تحت لسانه» يمكننا أن نطبقه على الامم والحضارات كذلك ، وهذا بالضبط ما وقع للغة العربية فى عصر الازدهار العربى .

جا. فى كتاب (أثر العرب فى الحضارة الاوربية) لعباس محمود العقاد ما يلى : «... كان شيوع التعليم بالعربية سببا لاهمال اللاتينية والاعريقية وخطوة لابد منها لاجيا. اللغات الشعبية وتداول الشعر والبلاغة والعلوم من طريق غير طريق القسوس والرهبان المنقطعين للمباحث الدينية . ويروى لنا دوزى فى

كتابه عن (الاسلام الاندلسى) رسالة ذلك الكاتب الاسبانى - الفارو - الذى كان يأسى أشد الاسى لاهمال لغة اللاتين والاعريق والاقبال على لغة المسلمين فيقول (ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الادب العربى فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، وساء ذلك معاصرا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مر الاسف وكتب يقول : ان اخوانى المسيحيين يعجبون

بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء والمسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها بل لاقتباس الاسلوب العربى الفصيح) . فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟

وا أسفاه . ان الجيل الناشئ من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون أدبا او لغة غير الادب العربى واللغة العربية ، وانهم لينتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأعلى الانمان ، ويترنمون فى كل مكان بالشناء على الفخائر العربية فى حين يسمعون بالكتيب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بانها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات .

فيا للاسى . ان المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحدا فى كل ألف يكتب بها خطابا الى صديق . أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعرا يفوق شعر العرب انفسهم فى الالاقاة وصحة الاداء ... انتهى كلامه .

نرى من هذا الوصف الذى لو طبق فى أيامنا هذه على ظروفنا وأبدلنا فى هذا النص اللغة العربية باللغة الفرنسية والبلاد الاسبانية بالبلاد العربية كان صادق المدلول كامل المطابقة حيث التاريخ يعيد نفسه .

ونرى ايضا من هذا أنه ليست حالتنا الحاضرة حيث يتهاقت الجيل الفتى على لغة الغالب وينظر الى لغته بعين الاهمال والتنقيص هى الحالة الاولى من نوعها فى التاريخ ، بل نستخلص مما سبق أن التاريخ يفيدنا ببعض القواعد كدروس لا بد ان نستفيد منها ونعتبر بها كائمن عبرة فى حياتنا :

وحركة لا تنقطع عن طريق الادب والفلسفة .. الخ ...
كل هذا كامن في النفس لا ينقب عنه الا ساعد
اللغة الاصلية التي تكون وحدها قادرة على التبليغ
بأمانة ونفوذ وتوافق مع المعنى .

ولهذا نرى الناس يدافعون عن لغتهم بنور بصيرة
اذا كانوا من زمرة المتبصرين بادراكهم لعظمة الدور
الذي تمنحه اللغة في هذا المضمار .

فهم يحنون اليها لانها تتكلم وتختلج مع نفوسهم
وأثنتهم وأرواحهم وبفضلها يلمسون الوجود ذوقا
وادراكا .

فاللغة الاصلية نقطة وصل بين الانسان والوجود
أصدق وأتم من أى لغة أجنبية دخيلة التي تفيد طبعها
علما وعمليا ولكن لا تصنع الا لربط العلاقات لا كصلة
روح بروح ، ومن جهة أخرى يقول كالينين أحد رؤساء
الجمهورية السابقين في الاتحاد السوفياتي في كتابه
المسمى (حول التربية الشيوعية) متوجها الى التلاميذ
في الصف التاسع والعاشر : (يجب قبل كل شيء أن
تتقنوا معرفتكم للروسية . انني ارى أن معرفة اللغة
الروسية عامل مهم لتطور الانسان العام وذلك لان
جميع العلوم التي تستطيعون أن تدرسوها ، ولا سيما
اذا دخلتم في المعاهد غير التكنيكية ، وجميع نواحي
النشاط الاجتماعي تتطلب معرفة جيدة للروسية ..

ان دراسة اللغة القومية الاصلية مهمة جدا
وان أسمى منجزات الفكر البشري وأعرق الافكار وأشد
العواطف ستبقى مجهولة اذا لم يعبر عنها تعبيرا واضحا
مضبوطا بالكلمات ...) انتهى كلامه .

فهو يوصي أطفال الاتحاد السوفياتي بثلاثة أشياء :

(1) قبل كل شيء اتقان اللغة القومية الاصلية .

(2) ثم الرياضيات . (3) ثم الرياضة البدنية ، وهو
يعلم أن اللغة القومية هي الوسيلة الحية غير الدخيلة
لجعل الافكار والمشاعر مفرغة في قالب صادق واضح .

(4) والفائدة الرابعة التي نجنحها من عبر التاريخ هي
تنازع البقاء بين اللغات . كلما احتلت أمة أرض أمة
أخرى يسعى الغالب في تقويض كيانه المغلوب وتحطيم
شخصيته تحطيمًا يفتني معه وجود المغلوب فيصبح
عبدا منصاعا لسيدته الثقافي الذي يفرض تديريته ولغته
ونظراته للكون .

(1) الاولى هي أن الروح البشرية لا تتجزأ ، فخصائص
رقيها او انحطاطها وخذلانها يتجلى دفعة واحدة في
سائر مظاهر الحياة وخصوصا في اللغة كما سبق لنا
الكلام عنه .

(2) الثانية ان اللغة العربية كانت ولا زالت لغة
حضارة منذ قرون عديدة فلا يصدق عليها ما يقال عن
اللغات البدائية مثل اللهجات الافريقية أو بعض
اللهجات الآسيوية المختلفة أو غيرها . فهي لغة رسالة
سماوية ولسان حضارة بفضلها قامت القارة الاوربية
من غفوتها ، وهي احدى اللغات التي تناط بها وتسمو
بها الثقافات الكبرى مثل الانجليزية للثقافة
الانجلوسكسونية واللغات اللاتينية للثقافة اللاتينية
وهلم جرا ، فالعربية هي لغة الثقافة العربية الاسلامية
وعقلية الامة الاسلامية في سائر القارات لا سيما في
الوطن العربي حيث تمام الدليل علاوة على ذلك في
سوريا مثلا على أن اللغة حية يجرى بها العمل في سائر
فروع التعليم والادارة والعمليات العامة .

(3) الثالثة ان اللغة روح ووعاء للحضارة فمن أراد
أن يرتقى سلم الرقي لا بد له أن يحافظ على لغته في
الآداب والفنون والعلوم على السواء لان اللغة وحدة
والازدواج شيء سطحي ومؤقت واصطناعي لا أساس
له في التاريخ ولا في النفوس عند مجموع الامة .

فاللغة وعاء للحضارة والشخصية وهي كبطاقة
تعريف للثقافة والامة بحضارتها وثقافتها فاذا غلبت
عليها لغة أخرى ذابت شخصية الامة وذعبت ريجها .
وهي كروح أهم من كونها وعاء للحضارة او وسيلة
تعبير .

فانها ما سميت باللسان تقريبا عند كثير من الامم
الا لانها ترجمان العبقريّة الخاصة بالامة وبمشاعرها
ونظرتها للوجود وهوية نفسها وقيمة الهيكل الاجتماعي
بأكمله .

ثم انها كروح هي اجلي وافصح صورة لبشرية الامة
بلطفها وصفاتها ونورها حسب مفردات عمر ابن الفارسي
التي تتميز بها روحانية الاجيال سابقها ولاحقها ،
فعبقريّة الامة وروحانيته سر يكشف على الدوام لزخارة
الحقائق ومرونتها وريقتي معانيها ولطفها وتجديد
مفاهيمها المستثمر في ابتكار متواصل وتطور خلاق

ولا يالو الغالب جهندا لا نفي الحسيات ولا في
المعنويات حتى يستولى عليها كلية .

ففيما يتعلق ببلادنا ، جاء المستعمر فحاول أن يحو
أثر اللغة والدين ، لارغام الناس على نسيان شخصية
قومهم واندماجهم في شخصية الغالب ، فقر رأيه على
تكسير وحدة البلاد بهدم الدين الذي لا يتم هدمه الا
بمحاربة القرآن ، وذلك كان هو السبب الاساسي
للسياسة البربرية التي ما زال الى يومنا هذا يطمح في
نجاحها من وراء الستار .

فاستولى على التعليم بعد أن نشر نفوذه السياسي
والمسكوي على البلاد ، وحارب اللغة العربية بنفس
الروح التي تآصلت من الحروب الصليبية التي افتضح
وجودها لما أوجب وزير الخارجية الفرنسي السابق
جورج بيديو وبعد أن سئل لما نفى الملك محمد الخامس
بقوله : (لن أسمح للهلال أن يتغلب على الصليب) .

والغاية من ذلك هو استمرار الاستغلال الاقتصادي
واحتلال المراكز الاستراتيجية في العالم ونشر النفوذ
المعنوي واللغوي القاتل لشخصية المغلوب والمبعد
لطريق القوة والتمتع المادي .

وهنا يتميز الرجل الحر ، عن العبد الراضى عن
سيده الذي يدخل في زمرة المسخرين الجبناء عنم كان
له شعور بكرامته وباستقلال شخصيته وحرية روحه
وقيمة عقله لا بد أن يثور على القاهر الجائر ويعاكس
خطئه ويحافظ على لغته التي ليست لقيطة مرتجلة بل
لغة رسالة عظيمة في الوجود الكوني .

وبهذا الصدد يقول الحافظ ابن حزم في كتابه
(الاحكام في أصول الاحكام) : وان اللغة يسقط
أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم
عليهم في مساكنهم او ينقلهم عن ديارهم واختلاطهم
بغيرهم ، فانما يقيد لغة الامة وعلومها وأخبارها قوة
دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . واما من تلفت دولتهم
وغلب عليهم عدوهم واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل
وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان
ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم واخبارهم
وببود لغتهم ، هذا موجود بأشاعرة ومعلوم بالعقل
ضرورة، انتهى كلامه .

كل ما مر بنا يكفي لاقتناعنا ان الناحية المبدئية

من مسألة اللغة تتلخص في كلمة واحدة : الإرادة .
فاللغة كسائر العوامل الاجتماعية يعادل وزنها وقيمتها
وزن الامة وقيمتها في حظيرة الامم . فان اللغة العربية
لا تحتاج الا لشيء واحد لا فني العلوم ولا في الفلسفة
ولا في الآداب وهذا الشيء الواحد هو الاستعمال فهي
موجودة لكن الامة معنويا مفقودة ، اذا صح هذا التعبير
التقريبي .

فلاعتزاز باللغة دليل على عمق الفكر وبعد النظر ،
ومعرفة حكمة التاريخ ، وصدق النية وروح الفسيرة
ورفض الاستعباد والذل والشعور باستقلال الشخصية
وجمال اللغة الاصيلية وسهولة متناولها على النشء . مثلما
فعل اليابان والصين وروسيا واليونان وشعوب أوروبا
الوسطى وحتى ما يسمى اليوم بإسرائيل حيث الاعتزاز
بالنفس والدفاع عن الشخصية التي يرغب في تكوينها
الصهيونيون فيدفعهم الى احياء لغة ميتة من قبرها وهم
يستعملونها في كل عمل من اعمال الحياة فني الشؤون
اليومية والانتاج الفكري والعلم والتطبيقية والتدريس
في الجامعات رغم كونهم أقلية ضئيلة لا زال أكثرهم
مقطعين في الارض ، كل هذا بفضل ارادة اصحابها .

واليابانية رغم صعوبتها وانحصارها ضمن حدود
بلادها لا غير صارت مع مر الزمان وقطع مراحل التطور
الى ما صارت اليه اليوم لغة شعب بلغ من التقدم
والرقى ما جعله يزاحم سائر الدول الصناعية الكبرى
بل واصبح من ناحية التدبير وال عمران مرجعا من ائمن
المراجع يقلده الامريكان وغيرهم في بعض الميادين
خصوصا في التعمير وأساليب التجارة .. الخ .. هذا

من الناحية المبدئية .

(2) اما الناحية العملية فانها تركز - اذا امعنا
النظر - كلها على الناحية المبدئية ، لان اللغة العربية
لا تحتاج أول الامر وآخره الا الى شيء واحد كما سلف
وهو ايمان أبنائها بها وتشبعهم بروح الحرية التي
لا غبار عليها ولا نفاق فيها حتى يعتزوا بشخصيتهم
بواسطتها ويحافظوا بفضلها على معنويتهم وثقافتهم
وخصوصا برسالة الحياة التي تضمنها القرآن الكريم
وعبر عنها ببيان اللغة العربية وعبقريتها .

فالإيمان بها يرجع في الواقع الى الايمان بالنفس ،
وهنا يتميز الاحرار من العبيد كما وجدنا هذا المعنى
جليا عبر التاريخ .

وهذا الايمان بدوره يخلق ارادة قوية لإستعمال اللغة في العقل العلى والعمل على السواء من ارادة وممارات كما هو الحال في ليبيا مثلا في المغرب العربي ومنها الى سائر الدول العربية خصوصا سوريا حيث وصل التعريب الى درجة أقامت برهانا على مدى فعالية الارادة والعزم وروح الشرف .

بل لم يضع هذا المجهود العربي وانما جاء رصيذا نينا ساعدت على الاحتفاظ به الذخائر الدفينة فى التراث القديم من طب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وما اضيف الى هذا التراث القديم .

فاللغة العربية لغة حضارة عريقة كانت ولا زالت حية يسهل استعمالها بفضل استمرار العمل بها لانه كما يقول بعض المفكرين : « ان افضل وسيلة لتعلم الضرب على العود هو الضرب على العود نفسه . »

الاستعمال يكشف عن قدرة اللغة وعن حيويتها وغزارة ثروتها المجهولة ، إننا نرى اللغات الاوربية العالمية مثل الانجليزية والفرنسية موضوع اعتناء أبنائنا بهما بكيفية لا تنقطع لا يعرقلها توان ولا هوادة ولا كبرياء . بل ان الاصطلاح العلمى فى اللغات الغربية كله مستعار تقريبا من اللاتينية واليونانية وبعض اللغات الاخرى ومنها العربية التى لا ينبغي أن يعتبرها الجهلاء محض لهجة ضعيفة .

فلا بد من الاقتباس عندما تدعو الضرورة اليه فى الحقل العلمى أما بالتعريب وهو افسراغ اللفظ الاجنبى فى قالب عربى واما بأخذ الكلمات على ما هى عليه فى الاصل وهذا ما قد جرى به العمل وأصبح عاديا فى الدول العربية .

ثم ان وفرة المعاجم والكتب المتوفرة الآن فى الحقل العلمى والمستعملة فى بعض الجامعات العربية لدليل على خصوبة اللغة وقدرتها على أداء رسالة وعلى استمدادها للتطور والتكيف وقبول الاقتباس والاضافة ومسايرة الحركة العلمية العالمية .

وهذه المجهودات فى التأليف والترجمة مبادرة مباركة تشجع على مواصلة الاجتهاد والكد والمثابرة . وضعا لا ينبغي لهذه المجهودات أن تبقى حبرا على ورق كخرافات النسبية ولكن من الواجب أن يجرى بها العمل فى التدريس الجامعى .

وكل ثورة من أجل الحرية لا تتم الا اذا ما استأصلت

الداء الاستعمارى من جذوره الفكرية واللغوية والقضاء على السم فى مكائمه الدساسة من وراء الستار بواسطة البعثات والمستشارين وهم ثعابين موطفة ، يهيئون العقول لاعتناق فكرة ضرورة اللغات الاجنبية فى الميدان العلمى وعدم صلاحية اللغة العربية التى يضررون لها كلغة العروبة والدين ما قد صرح به قريبا أحفاد الحروب الصليبية ، فدعاة الازدواج هم فى الواقع يساعدون على سياسة الاستعمار الجديد اما عن علم واما عن جهل ، وغفلة ، والنتيجة واحدة مع الاسف ، فمن المستعجل أن يتم تعلم اللغة واتقانها عن طريق استعمالها اذا اقتصر على تدريس نصفها الادبى والكلامى العادى وازغام الناس كرها على اقتناء العلوم بلغة اجنبية ، فان المآل هو طمس القرائح والجرى على عكس مجرى التاريخ .

تصور طفلا ذكيا أهله طبيعته الى الادب والانتاج فيه ، فانه لا محالة يجد لغته مشلولة عرجاء ناقصة تعوزها الالفاظ والتراكيب العلمية والتكرين الفكرى العلمى لاستعمال هذا القسم العلمى من اللغة ، ونحن نرى من الآن الصبيان فى البيت ينطقون بجملة عربية ويدخلون فيها ألفاظ الحساب والعلوم بالفرنسية وذلك فى أبسط المحادثات اليومية .

وتصور طفلا آخر أهله طبيعته الى التفوق فى العلوم، وأزاد أن ينتج فيها ويكتب أو يعد محاضرة علمية للموم بلغته العربية فانه يجد نفسه عاجزا عن ذلك متألما مجروح النفس كما يعبر عنه بكل صراحة بعض الناس فى نوع من الجد والصدق والعمق .

وخلاصة القول ان مسألة اللغة فى الحقل العلمى هي مسألة اللغة كلغة بتمام حداثتها وحياتها ، بجانب هذا ان وجوب تعلم اللغات الاجنبية شئ لا جدال فيه وهذا موضوع آخر فقد قيل كل لسان بانسان وان التقدم والتفاهم الدولى لا يتأتى الا باتقان اللغات الاجنبية المهمة ، هذا شئ مفروغ منه ، ان ما يهمنا هو ضرورة استعمال اللغة الاصلية .

فقد أقام القدماء البرهان على كون اللغة العربية كما أسلفنا قادرة لا على أن تكون لغة علوم مثلما نراه فى أمهات الكتب الهندسية والطبية والجغرافية والفلسفية فى عصور الازدهار فحسب وانما هى قادرة على أن

تكون لغة عالمية من جملة لغات الحضارة أيضا .

هي كلسان عربى نزل به القرآن مضمونة المستقبل رغم كيد الجهلاء ، فلقد تولى الله سبحانه حفظ القرآن وبواسطته حفظ اللغة العربية ولو كره الغافلون . وهي بفضل القرآن لغة رسالة حضارية ثقافية وصل وقتها وحن من جديد عصر ازدهارها نظرا لتطور التاريخ الى ترجيح كفة التعارف المعنوى بين الشعوب على كفة الاستغلال الاقتصادى .

ليست اللغة الا لسان العقل الحى ينشد الحقيقة والنور ، وهذا اللسان يقارن انتاج القرائح فى العالم مع ما ينتجه أبناء اللغة الاصيلة ليتم سير التاريخ الى نشر النور والحق فى الدنيا .

فالامر جسيم والمهمة جلييلة وواجب العقول المستنيرة هو الارتقاء الى هذا المستوى الرفيع الذى تمثله عبقرية اللغة الاصيلة .

سلا : الدكتور المهدي بن عبود

